

يزيد بن معاوية

obeikandi.com

ولا شك أن يزيد بن معاوية بقراراته الدامية وشخصيته المحبة للترف واللهمو، كانت فترة حكمه البصرة بعد أبيه معاوية بن أبي سفيان حقبة كثيبة من التاريخ الإسلامى، ولو اقتفى أثر أبيه وسياسته التى تتسم بالنضج وفهم طبائع الأمور، وحسن اختباره لمن حوله من الرجال، ما حدث من يزيد، الذى لم يكن يجيد اختيار الولاة، وكان متعسفا فى الحكم على الناس، ولا يعرف أقدار الرجال.

لقد آل الحكم للأمويين فى شهر ربيع الأول سنة ٤١ هـ بعد أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وبايعه فى الكوفة، وبذلك أصبح معاوية هو خليفة المسلمين، وانتهت بذلك الحرب الأهلية بين المسلمين، وسمى هذا العام عام الجماعة، وبذلك تحققت نبوءة الرسول ﷺ عندما قال عن الإمام حسن رضى الله عنه.

«إن ابنى هذا سيد، ولعل الله صلح به فئتین عظيمتين من المسلمين».

وبتولى معاوية الخلافة تغيرت طريقة الحكم، فلم تعد كما كانت أيام الخلافة الراشدة باختيار المسلمين بعد أن يرشح الخليفة عددا من الصحابة - أبى بكر الصديق بعد أحداث السقيفة التى كانت عقب وفاة الرسول ﷺ، وحاول الأنصار أن يكون الخليفة منهم وذهب أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الجراح الى السقيفة حيث كان يجتمع الأنصار، ودارت حوارات طويلة انتهت بمبايعة أبى بكر للخلافة، ثم جاءت

المبايعة العامة فى مسجد الرسول ﷺ، وبذلك أصبح الصديق خليفة للمسلمين بعد رحيل أعظم رسل السلام، وعندما حضرت الصديق الوفاة، أختار عمر بن الخطاب لخلافته، أو بمعنى أدق طلب من المسلمين الموافقة على اختيار عمر للخلافة، فقد رآه أصلح من يتولى الخلافة لنزاهته وذكائه، وقدرته على قيادة سفينة الخلافة فى الظروف الصعبة التى كانت تمر بها الخلافة الإسلامية، حيث هناك المعارك بين المسلمين وبين أمبراطوريتى الفرس والروم، وأن الأمور تحتاج إلى شخصية عمر بن الخطاب ونزاهته وحسمه للأمور، بجانب ما أمتاز به من التواضع والزهد والعدل.

وقال للناس :

«ترضون بمن استخلف عليكم، فانى والله ما ألوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا».

لقد شاور أبو بكر الصحابة فى هذا الأمر ووافقوا عليه، وبالتالي تم اختيار عمر، وبايعه الناس المبايعة العامة بعد وفاة الصديق. وخلف عمر عثمان بن عفان، وكان عثمان رضى الله عنه واحدا من الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة منهم، ولأنه أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وقد بايع الكثير من الصحابة الإمام على بن أبى طالب بعد استشهاد عثمان إنقاذا لما ساد الأحوال من فتن.

وتقبل الإمام تحمل المسئولية فى هذه الظروف الصعبة ،
وعندما استشهد الإمام على ، بايع الناس الحسن الذى آثر أن
يتنازل عن الخلافة لمعاوية حتى يلتئم شمل الأمة ، وينهى
الصراع الدامى الذى اشتعل بين الامام على ، ومعاوية بن
أبى سفيان والذى قام بحجة الثأر لدم عثمان رضى الله عنه .
كان واضحا ان الخلفاء الراشدين ابعدوا عن الخلافة أقربائهم ،
بدليل ان أبا بكر اختار عمر بن الخطاب ، رفض أن يعين
خلفا له ابنه عبد الله بل كان واحدا من الذين يستشارون فى
اختيار الخليفة ، وترك على بين أبى طالب الأمة فى اختيار
الخليفة بعده للمسلمين ، وقال لهم عندما طلبوا منه ترشيح
الحسن للخلافة :

«لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر» .

وصلت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، وبايعه أصحابه
على لم شمل الأمة ، من أمثال عبدالله بن عمر ، وسعد بن أبى
وقاص ، وكان الأمل معقودا على أن تظل الخلافة كما كانت بين
المسلمين باختيار الناس المباشر ، وأن معاوية سيرشح لهم من
بعده الأصلح ، لكن معاوية لم يفعل ذلك بل رشح ابنه «يزيد»
لتولى الخلافة من بعده ، وأخذ يدعو الناس لمبايعته فى حياته ،
وقد عارض أهل الحجاز هذا الأمر وكان على رأس الراضين
لهذا الأمر أعلاه الصحابة من أمثال عبد الله بن الزبير ،
والإمام الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم .

وبسبب هذا الرفض كانت العديد من المشاكل التي جابهت الدولة الأموية، والتي كانت أحد الأسباب القوية فى إنهاء هذه الدولة، ولولا هذه المشكلات لأصبحت فترة الحكم الأموى من أزهى عصور التاريخ الإسلامى، بما قدموه من فتوحات إسلامية عظيمة، نشرت الإسلام وحضارة الإسلام فى بقاع هائلة من آسيا وأفريقية وأوربا نفسها عندما كانت الحضارة الإسلامية فى الأندلس مزدهرة، وعندما أخذت هذه الحضارة المزدهرة أوربا، وانعكس ذلك عليها حضاريا، فقد تفتحت أوربا على هذه الحضارة العريقة التى تنشر أضواء تقدمها فى كل مكان حلت فيه وكان الأخذ بهذه الحضارة الإسلامية من أقوى الأسباب فى نهضة أوربا، عندما عرفت الفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أرسطو، الذى ترجمها وشرحها الفيلسوف العظيم ابن رشد، وترجمت إلى اللاتينية.

كانت الدولة الأموية إذن بكل المقاييس هى التى أرسى أسس الحضارة الإسلامية فى أمكنة عديدة من العالم امتدت من حدود الصين، حتى شواطئ الأطلنطى.

ولكن هذه الدولة التى سقطت بفعل عوامل كثيرة، منها تحويل الخلافة بلا شك الى وراثية، مما تسبب فى سقوطها فى النهاية، وإن سارت على منوالها أيضا فى هذا النظام الخلافة العباسية التى خلفتها، وسارت على هداها فى نفس النظام.

كان من الممكن ليزيد بن معاوية أن يكون لبنة جيدة فى بناء الدولة الأموية، وخاصة أنه كان ذكى العقل، شجاعا، كما قال عنه الرواة، ولكنه لم يستفد من مسيرة والده الذى كان يقول:

«إذا لم يكن الأموى حليما فقد فارق أصله وخالف آباءه».

وكان يقول أيضا:

«يابنى أمية، فارقوا قريشا بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعته حلما فأرجع، وهو لى صديق، أن استنجدته أنجدنى وأثور به فيثور معى، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرما».

لو كان يزيد قد أخذ هذه الطباع من أبيه لتغير وجه التاريخ.

ولد يزيد بن معاوية بدمشق سنة ٢٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان، وكان والده ملء السمع والبصر، فهو حاكم الشام القوى من قبل عثمان، وهو الذى استطاع بذكائه ودهائه وحسن سياسته أن يجمع الناس حوله، وأن يوسعهم أيضا بعطاياه.

وأم يزيد هى « ميسون بنت مجدل»، وكانت تعيش فى البادية، ثم تزوجت معاوية الذى نقلها الى الشام، ولكنها كانت تحب حياة البادية حيث الانطلاق والهواء الطلق، والحياة فى ظل الطبيعة الفطرية، ويقول الرواة إن معاوية سمعها ذات يوم وهى تغنى تقول:

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلى من قصر منيف

واكل كسيرة في كسر بيتي

أحب إلى من أكل الصنوف

وأصوات الرياح بكل فج

أحب إلى من نقر الدفوف

ولبس عباءة وتقر عيني

أحب إلى من لبس الشفوف

وكلب ينبج الطراق حولي

أحب إلى من قط ألوف

وبكر يتبع الأظعان صعب

أحب إلى من بغل زفوف

وخرق من بنى عمى ضعيف

أحب إلى من عالج عنيف

سمع معاوية هذه الكلمات وهاله أن تصوره كالحمار الوحشى السمين، فاستجاب لرغبتها، بأن طلقها لتعيش فى البادية وبعث معها ابنها يزيد، ليعيش فى أحضان الطبيعة البدوية ويكتسب الفصاحة والشجاعة والرجولة .

وقد أورد البغدادى فى خزنة الأدب:

«لما طلقها معاوية قال لها

– كنت فبنت.

فقلت له:

– ما سررنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بنا .»

وكان من الطبيعى أن ينشئه أبوه نشأة تؤهله لأن يخلفه فى الحكم، فكان يحثه عن البعد عن اللهو والترف، وأن يعلمه الحياة التى تؤهله لحمل المسئولية وأمانة الحكم، فقد أرسله على رأس حملة سنة (٤٩ – ٥٠ هـ) إلى القسطنطينية لحصارها، والقسطنطينية كانت عاصمة الدولة البيزنطية.

كان معاوية شديد الدهاء، وكان أيضا شديد الحلم.

من دهائه استعانته برجال عرفوا بحسن السياسة والدهاء، من أمثال عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزباد بن أبيه.

ويقول عنه الأستاذ العقاد:

«كان يقول: إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنبى أعظم من عفوى، وجهل أكبر من حلمى، وعورة لا أوارىها بسترى، وإساءة أكثر من إحسانى».

وكان يقول فى مجالسه.

– لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت.

وسأله بعضهم.

– كيف ذلك؟

فقال:

– كنت إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها».

وخطب يوماً فقال:

«والله لا أحسن السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى».

وحدُّ الحلم عنده ألا يكون فى العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه .

أغلظ له رجل فأكثر فقيلاً له.

– أتحلم عن هذا؟

فقال:

– إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعى اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التى كان بوسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما إلى ذلك من المنابت التى يسلمها له الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم.

كان الحلم دعاية سياسية فى خصومته مع على بن أبى طالب بما اشتهر من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى.

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية، وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقربنة لحكمه».

كل الصفات التى تمتع بها معاوية بن أبى سفيان، لم يأخذها عنه «يزيد» وإلا لتغير مسار حياة التاريخ الأموى، وما تبعه من تغير مجرى الأحداث عبر العصور، فاتسم عصره بالقسوة، كما حدث لتصديه للإمام الحسين، وقتله بلا رحمة، وليس من المعقول كما يقول معظم الرواة، أن الحسين عندما قتل فى كربلاء لم يكن يزيد على علم بذلك، فليس من المعقول أن يحاط شخصية فى حجم حفيد الرسول الكريم بجيش ابن زياد دون أن يكون يزيد على علم بذلك.

وليس من المعقول أن تحدث هذه المجازر لآل البيت فى كربلاء سنة ٦١ هـ دون أن يكون على علم بها، أو أن يتصرف واليه على الكوفة دون الرجوع إلى الخليفة فى أمر جليل كهذا الأمر.

كما أنه ليس من المعقول كل هذه القسوة التي واجه به جيشه ثورة المدينة المنورة سنة ٦٣ هـ .

كما غالى جيشه فى ضرب مكة وحصارها للقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير، وكان من الممكن له أن يعالج هذه الأمور بحزم أبيه، ودهاء أبيه الذى كان يستطيع أن يعرف أقدار الرجال وأن يحسم الأمور بدهاء السياسى، وخبرة المجرب لأحداث الحياة، دون أن يترك الأثر الهائل الذى تركه عند استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء.

لقد توفى معاوية بن أبى سفيان فى دمشق، فى رجب سنة ٦٠ هـ ولم يكن يزيد ابنه فى دمشق فأخذ له البيعة صاحب شرطته الضحاك بن قيس النهرى، ثم جاءت الوفود بعد ذلك لمبايعته بالخلافة وتهنئته بها.

ونعود إلى وصية معاوية لابنه يزيد:

إنها كما يقول الأستاذ عباس العقاد أنه استدعى الضحاك ابن قيس النهرى ومسلم بن عقبة، وقال لهما فى أشهر الأسانيد:

بلغا يزيد وصيتى . انظر أهل الحجاز فأنهم أهلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب عنك، وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عن كل يوم عاملا فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن يشهد عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا لسانك وعبيتك (موضع سرك) فإن فاتك شىء من عدوك فانتصر بهم. فإن أصبتهم فاردد أهل الشام

إلى بلادهم فإنهم أن كانوا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم،
وأنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: الحسين بن على،
وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر».

ويقال أنه ألقى هذه الوصية الى يزيد فقال

«يا بنى .إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء،
ذلت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك
من جمع واحد، وأنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى
استتب لك إلا أربعة نفر من قريش الحسين بن على، وعبدالله
بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر.
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، فإذا لم يبق
أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن على فان أهل العراق لن
يدعوه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه
فإن له رحما وحقا عظيما.وأما ابن أبى بكر فرجل إذا رأى
أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ليس همه إلا فى النساء
واللهو، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة
الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير».

وكانت هذه الوصية كفيلة لو أخذ بها يزيد بأن تغيير
ما حدث من أحداث دامية فى كربلاء وغير كربلاء، ولكنه
لم يأخذ بهذه الوصية، وكانت قسوته وقسوة أتباعه على آل
بيت الرسول وعلى أبناء الصحابة، ما جعل النظرة إليه وإلى
تاريخه مشوبة بالحذر، رغم ما قام به من جلائل الأعمال،

عندما سمح للفتوحات الإسلامية أن تستمر في عهده، حتى أن عقبة بن نافع وصل إلى شاطئ المحيط الأطلنطي، وعبرت جيوشه لفتح آسيا الوسطى.

ورغم أن عمر يزيد كان قصيرا حيث مات وهو ما زال في الثانية والثلاثين من عمره، إلا أن ما جرى من أحداث في أيامه، وموقفه من هذه الأحداث ظل وسيظل يحوم فوق سحابات الأحداث التي تمر بها في عالم اليوم وعالم الغد، وما نراه اليوم من شيعة العراق وما يفعلونه في ذكرى الإمام الحسين لأكبر دليل على تأثير الأحداث القديمة في واقع اليوم.

لقد جاء يزيد إلى الحكم والأمور على ما يرام سوى ما يحدثه الخوارج من قلاقل، وقد حاول يزيد أن تظل الأوضاع على ما هي من استقرار، وأن تظل الفتوحات الإسلامية التي بدأت في قمة انتشارها في عهد والده معاوية كما هو مرسوم لها، أن تنتشر حضارة الإسلام في العالم، وأن تصل أضواء هذه الحضارة إلى كل أرجاء الدنيا، ولكن قسوة يزيد وعدم استيعابه الدروس من والده، كانت بمثابة السواد الذي يلطخ صفحات الثوب الأبيض.

لقد مهد له معاوية الطريق بأن أخذ البيعة له في حياته، باللين أحيانا والشدة أحيانا أخرى، وقد كان هذا التصرف من جانب معاوية مثار جدل بين المؤرخين.

فالبعض أيد هذا التصرف على أساس أنه أراد للمجتمع الإسلامي الاستقرار، وعدم الصراع على السلطة، وكان من بين

المؤيدين لهذا التصرف عبد الرحمن بن خلدون حيث قال :

«والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الحل أجمع، وأهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء، الذى شأنه أهم عند الشارع، ولا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبتة مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عليه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادهة وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق فإنهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة».

وقد خالف ابن خلدون فى رأيه البعض الآخر من المؤرخين، على أساس أن الاختيار الذى قام به الصديق مثلا كان برضاء الصحابة، ولم يكن عمر بن الخطاب من أقاربه وأنه كان من الممكن أن تتحقق الأهداف التى ذكرها ابن خلدون فى رجل يختار أو يختاره معاوية نفسه، وفيه من المقومات ما يجعله يقوم بأمر الخلافة على أكمل وجه دون أن يكون ابنه أو أحد أقاربه.

مهما يكن من شىء فقد تم اختيار يزيد، وأصبح خليفة للمسلمين من بعد والده، وكان من الممكن أن يقتفى أثر والده فى التسامح واللين، ومعرفة أقدار الناس، وحسن اختيار من يتولون أمور المسلمين، ولكنه لم يحاول ذلك، بل إنه عندما

قام الإمام الحسين بثورته واتجه نحو العراق وحوصر في كربلاء من قبل جيش يزيد، كان من الممكن تجنب المشاكل التي أحدثها استشهاده سبط رسول الله ﷺ والتمثيل به وقتل آل بيت الرسول بلا رحمة، واكتفى يزيد بقوله عندما علم بما حدث للحسين وآل البيت:

«لعن الله ابن مرجانة، يقصد ابن زياد، لقد كنت أَرْضَى منه بدون قتل الحسين».

ولكن يزيدا لم يكن صادقا حتى في مشاعره تلك عندما جاءوه بخبر مقتل سبط الرسول، «بدليل أنه كان يعبث في الرأس الشريف» الذي طالما قبله أعظم رسل الله ﷺ بقضيب في يده، دون أن يستحي حتى من نساء آل البيت الذي أحضرهن كالأسارى!! وحواره مع السيدة زينب - رضى الله عنها - يدل على هذا الاستهتار. لقد نظر إلى رأس الحسين وقال:

يغلقتن هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم قال لمن حوله:

- أتدرون من أين أتى ابن فاطمة؟ وما الحامل له على ما فعل، وما الذى أوقعه فيما وقع فيه؟

قالوا:

- لا.

قال:

يزعم أن أباه على خير من أبي ، وأمه فاطمة خير من أمي ، وجده رسول الله خير من جدي ، وأنه خير مني ، أحق بهذا الأمر مني .

فأما قوله : أبوه خير من أبي فقد حاج أبي وأباه إلى الله عز وجل وعلم الناس أيهما حكم له .

وأما قوله :

«أمه خير من أمي» فلعمري أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ خير من أمي .

أما قوله :

وجد رسول الله ﷺ خير من جدي فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى أن لرسول الله فينا عدلا ولا ندا. ولكنه إنما أتى من قلة فقهه ، لم يقرأ «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير» (آل عمران ٢٦) .

قال الحارث بن كعب عن فاطمة بنت علي قالت :

لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية رق لنا ، وأمر لنا بشيء وألطفنا قالت :

«ثم إن رجلا من أهل الشام أحمر قام إلى يزيد فقال :

- يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه - يعنيني - وكنت جارية وضيفة ، فأرعدت وقرقفت ، وظنت أن ذلك جائز لهم ، وأخذت بثياب أختي زينب وكانت أختي زينب أكبر مني وأعقل

وكانت تعلم أن ذلك لا يكون.

فقالت :

- كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك ولا له.

فغضب يزيد وقال :

- كذبت والله، إن ذلك لى، ولو شئت أن أفعله لفعلت!

قالت :

- كلا والله، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا،
وتتدين بغير ديننا.

فغضب يزيد واستطار ثم قال :

- إياى تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت زينب رضى الله عنها :

- بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت
وأبوك وجدك.

فقال :

- كذبت يا عدوة الله.

قالت :

أنت أمير مسلط تشتم ظالما وتقهـر بسـلطانك.

قالت

فو الله لكأنه أستحى فسكت، ثم عاد الشامي فقال:

- يا أمير المؤمنين. هب لي هذه الجارية!

قال:

- أغرب، وهب الله لك حتفا قاضيا.

ثم أمر يزيد نعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم، وأن يعود أهل البيت إلى المدينة مكرمين.

هذا هو موقف يزيد من آل البيت، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز قوله كما يقول بعض الرواة:

«لو كنت من قتلة الحسين، وغفر الله لي وأدخلني الجنة، لما دخلتها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم».

لقد صور مؤرخنا الدكتور حسن حبشى فترة حكم يزيد بايجابياتها وسلبياتها بقوله:

والتفت يزيد فى سنة إحدى وستين إلى خراسان وسجستان فولى عليهما (مسلم بن زياد) بن أبيه، واتجهت أنظار الدولة إلى بلاد ما وراء النهر لتأديب جماعات من وسط آسيا ينسبون الى ما يعرف بالقبائل التركية التى كانت قد أخذت فى تهديد خراسان ومهاجمتها، مغتمنة فرصة الاضطراب فى العامل الأموى»، بيد أن المسلمين كانوا قد اتخذوا مدينة (مرو) ذات التاريخ القديم مركزا لعملياتهم الحربية منذ أن جمع معاوية أمور

الحكم فى يده وأدب بغزوتى عبيد الله بن زياد، وسعيد بن عثمان الطامعين من غير المسلمين فى الانقضاء على أطراف الدولة الإسلامية، ثم كانت القوة التى خرجت سنة أحدى وستين وعليها مسلم بن زياد بن أبيه ومعه المهلب بن أبى صفرة، فأدرك المتوثبون أن عين أولى الأمر فى الدولة الإسلامية ساهرة مستيقظة، وليست بغافلة عما يجرى مهما بالغوا فى التخفى.

وقد تمكن مسلم بن زياد من فتح خوارزم ومن بعدها سمرقند، وارتفع الأذان للصلاة فى تلك النواحي.

على أن هذه الفتوحات التى تعد نصرا للإسلام لم تصرف بعض الجماعات عن الاستمرار فى مضايقة الدولة الأموية وإزعاجها بشتى الوسائل، فنجد قيام جماعة (التوابين) بقيادة «سليمان بن مرد» تنادى بالثأر للحسين»، وأعلنت أن قيامها إنما هو تكفير عما جرى من نكوص الجماعة الإسلامية الأولى عن نصره الحسين بن على، وأن هؤلاء تابوا عما جرى من أبائهم فى حق حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن فاطمة وعلى رضوان الله عليهم أجمعين.

ويضيف المؤرخ الكبير :

- كذلك أمر الخليفة بعزل عمرو بن سعيد عن المدينة وولى مكانه (الوليد بن عقبة) ثم ما لبث أن عزله هو الآخر.

وكان (يزيد) يدرك ما للمدينة المنورة من أهمية فى استقرار مقاليد الحكم، وأن فى يدها جزءا من تصريف الأمور فى

العالم الإسلامي كله، وكان ذلك حقا لا ريب فيه، برهنت على صدقه ما جرت به الأحداث بعد حين»، ومات (يزيد) بعد عام من وقعة (الحرّة) التي آلت قلب كل مسلم، وتركت به جرحا هيهات أن يندمل، وكانت الوقعة أواخر حجة ٦٣ هـ ثم بويع معاوية بن يزيد الذي ما لبث هو الآخر أن وافاه أجله بعد ثلاثة أشهر وذلك في ربيع الأول سنة ٦٤ هـ.

وكان معاوية بن يزيد راغبا عن الحكم، عازفا عنه، حتى أنه خطب الناس فقال في خطبته لهم:
ما أنا بالمتقلد أموركم، ولا بالمتحمل تبعاتكم.
فوالله لئن كانت الدنيا مغنما فقد نلنا منها حظا.

وأن تكن الدنيا شرا فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها». كانت مشكلة يزيد بن معاوية أنه لم يسر على خط والده، ولو فعل ذلك ما حدثت هذه التحولات التي حدثت في المجتمع الإسلامي في عصره وامتدت إلى ما وراء عصره، فلم يكن في حزم أبيه في أخذ البيعة ممن واقفوا ضد هذه الرغبة، ولكنه كان يترك الأمور حتى يصعب حلها.
يقول على الجارم: في حديثه عن يزيد بن معاوية وتحليل شخصيته:

«ارتاح يزيد لمقتل الحسين، وارتاح لما يكون وراءه من آثار، فأحسن بعض الإحسان لآل البيت، ولكننا نراه لم يفعل شيئا

لابن زياد سوى أن يقول:

: لعن الله ابن مرجان، لقد كنت أرضى منه بدون قتل الحسين».

وعلم يزيد بعد هذه النازلة أن (ابن عباس) امتنع عن البيعة لابن الزبير، فأراد أن يحاكي أباه مرة في دهائه، فكتب إليه:

أما بعد

فقد بلغنى أن الملحد بن الزبير قد دعاك إلى بيعته، وأنتك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا، فجزاك الله من ذى رحم خير ما يجزى الواصلين لأرحامهم، الموفين بعهودهم، فما أنسى من الأشياء فلست بناس برك وتعجيل صلتك بالذى أنت له أهل. فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه، فأعلمهم بحاله، فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع».

فكتب إليه ابن عباس:

أما بعد:

فأما تركى بيعة ابن الزبير، فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك، ولكن الله بالذى أراه عليم.

وزعمت أنك لست بناس برى، فأحبس أيها الإنسان برك عنى، فإنى حابس عنك برى.

وسألت أن أحبب الناس إليك، فلا ولا سرورا ولا كرامة، كيف وقد قتلت حسينا، وفتيان عبد المطلب، مصابيح الهدى

ونجوم الظلام، فليس شيء أعجب عندي من طلبك ودي،
وقد قتلت ولد أبي، وسيفك يقطر من دمي، ولا يعجبك أن
ظفرت بنا اليوم، فلنظفرن بك يوما، والسلام».

لم يستطع يزيد أن يملأ فراغ أبيه، ولم يستطع يزيد أن يدخل
عقول الناس ولا قلوبهم، خاصة بعد أن أرسل (مسلم بن عتبة)
إلى المدينة واستباحها ثلاثة أيام، وهي مدينة رسول الله صلى
الله عليه وسلم، وتحت ثراها ثوى جثمانه الكريم، وهي معقل
الأنصار الذين ناصروا الرسول، وآزروه، وفتح بهم، وغزا بهم،
وكانوا من أحب الناس إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكيف يطيعه الناس وقد أرسل «الحصين بن نمير» إلى مكة
لمقاتلة ابن الزبير، ولكنه قذف بيت الله الحرام بالمجانيق دون
أن يراعى حرمة.

ويرى شاعرنا الكبير على الجارم أن (يزيدا) لم ينشئ
جديدا في نظام الحكم، ولم يترك وراءه ذكرا عطرا، لأن
الثورات في أطراف المملكة استغرقت مدة حكمه، وفي
أيامه فتح عقبة بن نافع بعض بلاد إفريقية حتى بلغ بحر
الظلمات، ولكنه فقدتها في النهاية وقتل.

لم يستطع معاوية أن يلحق ابنه في حياته سياسة الحكم،
ولم يستطع أن يطبعه بطابعه، فقد كان يزيد مولعا باللهو
والمجون وسباق الخيل، وكان استعداده غير استعداد أبيه،
وكان يعتقد أن الملك الذي أثله له لا تخشى عليه الرعا،

وأنه يكفى أن يحكم العرب بالقوة والجبروت حكما عسكريا.

على أن يزيد كان على غرار الشبان المترفين الذين كثروا
فى هذا العهد بالمدينة ، وكان لهم أثر بارع فى الأدب والغناء ،
وكانت لهم مجالس لهو وطرب ويقول :

وفى رأى أن القدر زحزح يزيد عن مكانه وحمله عبء
الخلافة وهو عبء لم تخلق له كتفاه.

ولقد كان شاعرا من الطبقة الأولى قبل أن يكون ملكا صالحا.

فقد قال بعض المؤرخين :

بدئ الشعر بملك ، وختم بملك .

يعنى امرأ القيس ويزيد بن معاوية .

ومن شعره :

جاءت بوجه كان البدر برقعته

نورا على مائس كالغصن معتدل

إحدى يديها تعاطيني مشعشة

كخدها عصفرته صبغة الخجل

ثم استبدت وقالت وهى عالمة

بما تقول وشمس الراح لم تفل

لا ترحلن فما أبقيت في جلدی

ما أستطيع به توديع مرتحل

ولا من النوم ما ألقى الخيال به

ولا من الدفع ما أبكى على الطل

ويقول في وصف الخمر:

إذا ما طفا فيها الحباب حسبتها

كواكب در في سماء عقيق

تدب دبيب المرء في كل مفصل

وتكسو وجوه الشرب ثوب رقيق

هماما هما لم يبق شيء سواهما

حديث صديق أو عتيق رقيق

وإني من اللذات دهري لقانع

بحلو حديث أو بمر عتيق

وهكذا كان يزيد، وهكذا مضت خلافته، وقد انتظر الناس منه بشغف أن يقوم بعمل عظيم ولقد قام بهذا العمل فعلا، وقام به على أحسن وجه، لأنه أسرع إلى الموت أو أسرع الموت إليه، فمات سنة أربع وستين، والله الأمر من قبل ومن بعد، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

والمعروف أن يزيد بن معاوية مات وعمره ٣٨ سنة.